M.Ü. İlâhiyat Fakültesi Dergisi
31 (2006/2), 119-132

القتال في "سبيل الله" و تداعياته كشعار إسلامي

الدكتور :حسن أليك*

موجز البحث

إن بعض الناس وخاصة الباحثين الغربيين يقولون: إن القرأن يحث على القتال باسم الدين. ويدّعون بأن الإسلام قد نُشر عن طريق القتال. ومن أسباب هذا الفهم ـ مع أسباب أخرى ـ قراءة الآيات التي تتحدث عن القتال عامة والقتال في سبيل الله خاصة بغض النظر عن الخلفيات التاريخية والأهداف القرآنية والوحدة الموضوعية فيه.

وازداد هذا الإدّعاء في السنوات الأخيرة حتى جعل وسطا لمفهوم "الإرهاب الإسلامي".

إن هذا البحث يتناول هذه المسألة لأهميتها العظيمة للسلام العالمي.

كلمات المفتاح: القرآن، آيات القتال، في سبيل الله، الإرهاب الإسلامي، الإكراه، حرية الدين، السلام، الإيمان، الكفر، المشركون، أهل الكتاب، الموالات، الدفاع، الوطن.

Özet

Tarihî arka planın ve Kur'an bütünlüğünün göz ardı edilmesi sonucu, Kur'an'ın, "kıtâl" ile ilgili ayetleri ve "Allah Yolunda Savaş" : "Fîsebilillah" ifadesi, bazı İslâm bilginleri tarafından batılıların kendi bakış açılarınca "Din Savaşı" diye anlayabileceği bir şekilde yorumlanmıştır. Bazı oryantalistler de –başka sebep ve sâiklerin yanında- bunu fırsat bilerek, Kur'an'ın din savaşını teşvik ettiğini ve İslâm'ın kılıç yoluyla yayıldığını iddia etmiş, son yıllarda bu iddia daha da yoğunluk kazanmış, iş bununla da kalmayarak, "İslamî terör" diye bir kavram ortaya atılmıştır.

Bu makalede; dünya barışı için tehlikeli olduğuna inandığımız anılan husus, Kur'an bütünlüğü ve onun temel ilkeleri ışığında ele alınmaktadır.

Anahtar Kelimeler: "Kıtâl" âyetleri, Fîsebîlillâh savaş, kutsal savaş, İslâmî terör, dünya barışı.

Abstract

The Kor'an's verses about "kıtâl" and the expression of "War for God" : "Fîsebîlillâh", is interpreted as "holy war" by some of the scholars as a result of undervalue of wholeness of Kor'an and the background of history. And also some oryantalists –with some other causes- claim that, Kor'an supports "holy war" and the spirit of Islam happened with the way of sword. Last years, this claim became stronger even, the term of "Islamic terror" has been proposed. In this article, the mentioned theme which is dangerous for "world peace", is considered according to the wholeness of Kor'an and ıt's main principles.

Key Words: Koranic verses about "kıtâl", war for God, holy war, Islamic terror, word peace.

إن في القرآن آيات عديدة تتحدث عن "القتال في سبيل الله". فإن القارئ لها

* **الأستاذ : في جامعة مرمره كلية الإلهيات (قسم التفسير)**

بغض النظر عن الخلفيات التاريخية و الأهداف القرآنية الكلية قد ينتهي إلى أن هذه الآيات تأمر بنزاع بين منتسبي الأديان المختلفة وباستخدام العنف والشدة في سبيل اعتناقهم الإسلام. فحقًا هناك من على هذا الفهم من المسلمين حتى العلماء. فبعض الباحثين الغربيين المحايدين يدعون في منتدياتهم مغتنمين هذه الفرصة قائلين بأن الإسلام يحث على "القتال باسم الدين". و بعض المستشرقين يقولون: إن نشر الإسلام عن طريق القتال حتى يسلم الناس كافة وظيفة دينية على جميع المسلمين فيؤولون ذلك ب"القتال المقدس"[1].

فيمكن الاعتبار بأن هذا الحكم هو الذي يشكل الأرضية – إضافة إلى أسباب أخرى- لمفهوم "الإرهاب الإسلامي" افتراء وبهتانا على الإسلام والمسلمين.

فإننا في بحثنا هذا سنتناول هذه المسالة التي نرى لها أهمية عظيمة للمسلمين و للسلام العالمي حيث نورد آراء العلماء و تفسيراتهم ثم نقدم رأينا وِفقًا لجامعية القرآن و تحت ضوء مبادئه الأساسية.

ولننتقل الآن إلى سرد الآيات المقصودة و تفاسيرها:

ما ورد في الآية: (**وقاتلوا في سبيل الله الذين يقاتلونكم ولا تعتدوا إن الله لا يحب المعتدين**) (١٩٠ : البقرة) من تعبير " وقاتلوا في سبيل الله" فبعض العلماء فسروها بقتال ديني من دون النظر في سبب نزولها وظروف المرحلة الراهنة عندئذ، وعدم الاهتمام بالأهداف القرآنية الكلية.

فإن لفهم هذه الآية المذكورة على وجه مهدوف منها لابد من إعادة النظر في بعض المسائل، وأهمها إثبات معنى ما ورد في الآية الكريمة من تعبير "في سبيل الله" وفقا لجامعية القرآن ألا وهو بمثابة المفتاح للقضية. فإذًا ما معنى "سبيل

[1] ولمزيد من المعلومات انظر : أحمد أوزل، مادة "الجهاد"، الموسوعة الإسلامية لوقف الديانة التركية، استانبول ١٩٩٣. ج٧، ص٥٣١.

الله"؟ إنه يعني المبادئ الأخلاقية التي وضعت من قبل الله، فإن تلك المبادئ تشكل حجر الأساس للمبادئ والقيم الإنسانية على مختلف الأديان. لا جرم أن على رأس هذه المبادئ الحقوق والعدالة. و الرازي المفسر يدلي رأيه في هذا المنوال ويقول: "إن سبيل الله هو كل ما أمر به الله سبحانه و تعالى".[٢]

هذا وهناك ما يُلزِمُ النظرَ: في أنَّ المقصِدَ الأساسيَّ لما وضعه الله من الأوامر و النواهي هو منفعة الناس و أن الله سبحانه وتعالى يعتبر الإساءةَ إلى الناس إساءةً والإحسان إحسانًا إلى ذاته سبحانه. فعلى سبيل المثال: إن الإنفاق إلى الفقراء يُعَدُّ إنفاقا في سبيل الله(**مثل الذين ينفقون أموالهم في سبيل الله كمثل حبة أنبتت سبع سنابل في كل سنبلة مائة حبة والله يضاعف لمن يشاء والله واسع عليم*الذين ينفقون أموالهم في سبيل الله ثم لا يتبعون ما أنفقوا منا ولا أذى لهم أجرهم عند ربهم ولا خوف عليهم ولا هم يحزنون**) (٢٦١-٢٦٢ : البقرة) حتى يسمى ذلك الإنفاق قرضا لله: (**من ذا الذي يقرض الله قرضا حسنا فيضاعفه له أضعافا كثيرة والله يقبض ويبسط وإليه ترجعون**) (٢٤٥ : البقرة). فإن ما في ثقافتنا الإسلامية من تسمية المباني و الخدمات المخصصة لفائدة الناس ولاسيما موارد الماء بـ"السبيل وسبيل الله" يُظهر ذلك الفهم السابق. عالمُ الاجتماع (علي شريعتي) يفسِّرُ "سبيل الله" كما يلي: لأن لفظ الله و لفظ الناس يقابل بعضها الآخر في المسائل الاجتماعية فكل منهما يكاد يستعمل في موضع الآخر. إذا فإن تعبير "سبيل الله" يعني "سبيل الناس" فهذا يفيد معنى نفع الناس. على هذا التقديريمكننا أن نقول: إن المقصود هنا من لفظ الله هو الناس أجمعين.[٣]

---

[2] انظر : أبو عبد الله محمد بن عمر فخر الدين الرازي (توفي ٦٠٦ هـ / ١٢٠٩م)، مفاتيح الغيب، دار الكتب العلمية، بيروت، ١٩٩٠، ج٣، ص ١١٦.

[3] انظر: علي شريعتي (توفي ١٣٩٨هـ / ١٩٧٧م)، علم الاجتماع الإسلامي، استانبول، ١٩٩٣، ص١٢٠.

فلننظر الآن إلى المقصود من "سبيل الله" الوارد في الآية المذكورة. فبعض العلماء قد فسروه بالإسلام ومن ثم زعموا أن قتال الناس أجمعين حتى يسلموا قتال في سبيل الله[4]. على رأي هؤلاء إنَّ الشركَ والكفر سببٌ للقتال فقتال غير المسلمين فرض كفاية على المسلمين ولو أنهم لا يقاتلون المسلمين قتالا فعليًا[5]. فإن هذا الرأي مخالف لما شَرعَهُ القرآن في آياتٍ كثيرةً من حقوق التدين و لما أقرَّته آيات عديدة من مبدأ عدم قتال من لا يعتدي. فنكتفي بتذكير آية واحدة منها: (**يا أيها الذين آمنوا إذا ضربتم في سبيل الله فتبينوا ولا تقولوا لمن ألقى إليكم السلام لست مؤمنا تبتغون عرض الحياة الدنيا فعند الله مغانم كثيرة كذلك كنتم من قبل فمن الله عليكم فتبينوا إن الله كان بما تعملون خبيرا**) (٩٤ : النساء).

المفسر المشهور الراغب الاصفهاني فسر تعبير سبيل الله: بطريق الصواب والحق لا بـ"لإسلام"[6] فحَسْبَ هذا التفسير: "القتالُ في سبيل الله" هو قتال المعتدين على الحقوق والعدالة قتالا دفاعيًا.ففي دوام الآية قال الله تعالى: (**وقاتلوا في سبيل الله الذين يقاتلونكم ولا تعتدوا إن الله لا يحب المعتدين**) (١٩٠ : البقرة) وبذلك قد تبين الأمر بوضوح أن المقصود من القتال في سبيل الله. وفي آية أخرى بيّن حكم مشروعية القتال إذا اعتدى الطرف المقابل: (**أذن**

---

4 انظر :أبو جعفر محمد ابن جرير الطبري (توفي٣١٠هـ / ٩٢٣م) ، جامع البيان في تأويل القرآن، مصر ١٩٦٨، ج ٦ ص ١٣٩.

5 انظر: فخر الدين عثمان بن علي الزيلعي (توفي ٧٤٣هـ / ١٣٤٢م)، تبيين الحقائق، بولاق، ١٣١٣ ج٣، ص٢٤١؛ كمال الدين محمد بن عبد الواحد ابن الهمام (توفي ٨٦١هـ / ١٤٥٧م)، شرح فتح القدير، القاهرة، ١٣١٥ ج٥، ص١٩٣؛ محمد أمين بن عمر بن عبد الله ابن عابدين (توفي ١٢٥٢هـ / ١٨٣٦م)، رد المختار، القاهرة، ١٣٢٤، ج٤، ص١٢٣؛ أحمد أزول، مفهوم الوطن في الحقوق الإسلامية، استانبول، ١٩٩١، ص٨٠.

6 انظر: أبو القاسم حسين بن محمد بن المفضل الراغب الأصفهاني (توفي ٥٠٢هـ / ١١٠٨م)، مفردات القرآن، مادة "القتال"، بيروت، بدون تاريخ، ص٤٨٠.

للذين يقاتلون بأنهم ظلموا وإن الله على نصرهم لقدير* الذين أخرجوا من ديارهم بغير حق إلا أن يقولوا ربنا الله ولولا دفع الله الناس بعضهم ببعض لهدمت صوامع وبيع وصلوات ومساجد يذكر فيها اسم الله كثيرا ولينصرن الله من ينصره إن الله لقوي عزيز) (٣٩-٤٠ : الحج). و في آية أخرى صرَّحَ بكل جلاء أن القتال دفاعًا عن النفس قتال في سبيل الله: (**وليعلم المؤمنين، وليعلم الذين نافقوا وقيل لهم تعالوا قاتلوا في سبيل الله أو ادفعوا)** (١٦٧ : آل عمران) كما أن في الآية: (**وما لكم لا تقاتلون في سبيل الله والمستضعفين من الرجال والنساء والولدان الذين يقولون ربنا أخرجنا من هذه القرية الظالم أهلها واجعل لنا من لدنك وليا واجعل لنا من لدنك نصيرا)** (٧٥ : النساء) وصف الله سبحانه وتعالى نصر المستضعفين المظلومين بالقتال في سبيل الله. فالزمخشري يقول في تعبير "سبيل الله": إن سبيل الله مفهوم جامع لكل الخيرات. وفي هذه الآية، المعنى المقصود هو إنقاذ المستضعفين من الظلم.[٧]

وإن الدليل الآخر على أن المقصود من (سبيل الله) ليس بقتال الناس من أجل إخضاعهم للإسلام كما قد بينا فيما سبق: أن القرآن لم يحصر معنى القتال في إطار قتال غير المسلمين بل وصف قتال المعتدين المسلمين أيضا بقتال في سبيل الله: (**وإن طائفتان من المؤمنين اقتتلوا فأصلحوا بينهما فإن بغت إحداهما على الأخرى فقاتلوا التي تبغي حتى تفيء إلى أمر الله فإن فاءت فأصلحوا بينهما بالعدل وأقسطوا إن الله يحب المقسطين)** (٩ : الحجرات). ففي الآية السابقة قد استعمل تعبير (سبيل الله) وأما في هذه الآية قد استعمل تعبير "أمر الله" والمقصودُ من (أمر الله) هنا ليس الإسلام. إذ كلا الطرفين على الإسلام. إنما

---

7 انظر: أبو القاسم جار الله محمود بن عمر بن محمد الزمخشري (توفي ٥٣٨هـ / ١١٤٤م)، الكشاف عن حقائق التنزيل، تهران، بدون تاريخ، ج١ ص ٥٤٣.

المقصود هنا إعراض الطرف المعتدي عن الاعتداء و رضاه بالصلح[8].وكذلك يُستنتج من هذه الآية: أن القتال في سبيل الله لا يقام لإكراه الناس على الإسلام بل إنما هو قتالٌ دفاعيٌ لكف الاعتداء و تحقيق السلام.

والحاصل فإن دفاع النفس والوطن الذي وصفته الحقوق بدفاع مشروع، سمي في القرآن بالقتال في سبيل الله. وفيما ورد في مقدمة نشرة بيان الحقوق الإنسانية العالمية من مادة اضطرار الإنسان إلى الانتفاضة إذا ما تقطعت الأسباب ضد الظلم والتسلط، يتماشي مع حكم القرآن السابق على القتال المشروع. وبهذا المعنى إن مفهوم القتال في سبيل الله يشمل كل الحروب التي قام بها بني آدم منذ القدم للاستقلال والدفاع. و أبرز مثال لذلك حرب الاستقلال للأتراك معترَفةٌ بمشروعيها من قبل جميع الأقوام. فإنها صارت أسطورة على لسان الشاعر "محمد عاكف" حيث شبهها بغزوة بدر.[9] وهذا يؤيد ما ذهبنا إليه.

والآية الأخرى التي تعتبر مسوغة للقتال باسم الدين هي: (**وقاتلوا في سبيل الله الذين يقاتلونكم ولا تعتدوا إن الله لا يحب المعتدين**) (١٩٠ : البقرة). فتتلقى هذه الآية أيضا أمرا عاما لقتال غير المسلمين. ولكن في الحقيقة لما كان ضمير "هم" الوارد في الآية معطوفا على المشركين الذين ذكروا في سابق هذه الآية حيث إنهم يقاتلون المسلمين قتالا فعليا، فالأمر سار لقتال الظالمين والمعتدين والمعارك القائمة آنذاك فقط. إذن فالمعنى من "هم" ليس غير المسلمين. بل إنما هناك قتال قد عُيِّنَت أسبابه و شُخّص العدو و حُدِّد نطاقه من حيث الأخلاق و المبادئ. فذلك العدو هو مشركو مكة ومن شابههم على مر الدهور. والسبب اعتداؤهم وهم أول من بادر بالقتال: (**ألا تقاتلون قوما نكثوا أيمانهم وهموا**

---

8 انظر: أبو عبد الله شمس الدين محمد ابن القيم الجوزية (توفي ٧٥١هـ / ١٣٥٠م)، زاد المعاد في هدي خير العباد، بيروت ١٩٨٦، ج٧، ص ٤٦٣.

9 انظر: محمد عاكف (توفي ١٣٥٥هـ / ١٩٣٦م)، صفاحات، إستانبول، ١٩٩٣، ص٣٩٠.

بإخراج الرسول وهم بدؤوكم أول مرة أتخشونهم فالله أحق أن تخشوه إن كنتم مؤمنين) (١٣ : التوبة). فإن شمل القتال الذي قد حدد بعدو فعلي على جميع غير المسلمين وحمل حكم الآيات التي وردت في الذين أخرجوا رسول الله و أصحابه من ديارهم مثل أبي سفيان وأبو جهل على غير المسلمين المعاصرين الذين يحترمون حرية الدين والوجدان والذين يحتضنون في دولهم ملايين من المسلمين، ويا ترى أذلك أقل جرمًا مما اقترفَ مشركو مكة؟

(وقاتلوهم حتى لا تكون فتنة ويكون الدين لله فإن انتهوا فلا عدوان إلا على الظالمين) (١٩٣ : البقرة) فهذه الآية أيضا اتخذها بعض العلماء مبررا لمشروعية القتال باسم الدين.حيث فسر بعض المفسرين مفهوم لفظ" الفتنة" الوارد في الآية بـ(الشرك) أي: اتخاذ آلهة من دون الله وبالجحود.[10] وبذلك يكون معنى الآية: قاتلوهم إلى أن يسلم جيمع المشركين و يزهق الشرك والإنكار.

ولكن الراغب الإصفهاني قد فسر الفتنة مصيبا أنها إجبار وإكراه و استعمال القوة والشدة[11] و كذلك الفقيه المشهور ابن الهمام على هذا الرأي[12]. والرازي المفسر يفيد بأن المقصود هنا من الفتنة هو العذاب الذي تعرض له المسلمون على أيدي المشركين وبسببه اضطرَّ المسلمون إلى الهجرة من ديارهم التي ترعرعوا فيها إلى الحبشة أولا و إلى المدينة آخرًا.[13] فإن هذا هو الصحيح بالنسبة لنا من الآراء المعروضة.

---

[10] انظر: ابن جرير الطبري، جامع البيان، ج٢، ص١٩١-١٩٢؛ أبو الفداء عماد الدين إسماعيل بن عمر ابن كثير (توفي ٧٧٤هـ / ١٣٧٣م)، تفسير القرآن العظيم، مصر، بدون تاريخ، ج١، ص٣٢٩؛ الزمخشري، الكشاف، ج١، ص ٣٤٢.

[11] انظر: الراغب الاصفهاني، المفردات، مادة "الفتنة"

[12] انظر:كمال الدين ابن الهمام، شرح فتح القدير، ج٥، ص١٩٠.

[13] انظر: الرازي مفاتيح الغيب، ج٥، ص١١٣.

إذن فإن الآية المذكورة لا تستهدف قتالا في سبيل إكراه المشركين على الإسلام. فالرسالةُ التي تبلغنا إياهاهذه الآية هي مواصلة الدفاع حتى ينتهي إكراه مشركي مكة متألهين الذين يضطرون الجميع إلى الشرك وحتى تكون العبادة لله ويتعبد الناس ويؤمنوا بالله أحرارا من دون الخوف من أي أحد على أنفسهم وأموالهم. ففي دوام الآية " فإن انتهوا فلا عدوان إلا على الظالمين" بذلك يظهر أن الغاية هي ليست إسلامَ المشركين بل انتهاءهم من الاعتداء.

كما يرى أن الهدف من هذه الآيات التي على لسان البعض تُفسَّر بنشر الإسلام عن طريق السيف، هو تحرير الدين لا القتال باسم الدين على عكس ما يقولون تماما. فإن تقدم عنصرا لدين على غيرها في الآيات هو أن المشركين كانوا يعتدون باسم الدين وبالتالي كان الدفاع باسم الدين كذلك. إذن على هذه الحالة يعتبر القتال للمشركين قتالا دينيًا وللمسلمين قتال التحرير.

فإن تفسير هذه الآيات المعنية بحرية الدين والوجدان بالوجوب على المسلمين بإدخال الناس في الإسلام ماحقين الأديان الأخرى، هو وقوع على موقف مشركي مكة الذين ما كانوا يعترفون بحق الحياة لمنتسبي الأديان الأخرى. ولكن أعظم ميزة للإسلام هو اعترافه لكل واحد بحق التدين.فإن القرآن قد اتخذ حفاظ أديان الناس ومعابدهم التي هي رمز الأديان غاية لنفسه كما أنه يأمر بالحفاظ على المعابد الإسلامية (**الذين أخرجوا من ديارهم بغير حق إلا أن يقولوا ربنا الله ولولا دفع الله الناس بعضهم ببعض لهدمت صوامع وبيع وصلوات**...) (٤٠ : الحج).

خلاصة الكلام أن الادعاءَ بوجوب نشر الإسلام عن طريق القتال باعتبار الكفر والشرك سببٌ للقتال هو مخالف لما بينه القرآن من مشروعية القتال. إذ أنَّ القرآن في آياته المتعلقة بالقتال منع بقتال من لا يعتدي (**وقاتلوا في سبيل الله**

الذين يقاتلونكم ولا تعتدوا إن الله لا يحب المعتدين* واقتلوهم حيث ثقفتموهم وأخرجوهم من حيث أخرجوكم والفتنة أشد من القتل ولا تقاتلوهم عند المسجد الحرام حتى يقاتلوكم فيه فإن قاتلوكم فاقتلوهم كذلك جزاء الكافرين* فإن انتهوا فإن الله غفور رحيم* وقاتلوهم حتى لا تكون فتنة ويكون الدين لله فإن انتهوا فلا عدوان إلا على الظالمين) (١٩٠-١٩٣ : البقرة). فمعظم العلماء قد تبنوا عدم قتال غير المسلمين الذين لا يقاتلون المسلمين. أن الشرك والكفر ليسا سببًا للقتال.[١٤] ومنهم العالم الدبوسي فيقول: إن كان الكفر سببا للقتال فقد أمر بقتال جميع غير المسلمين. ولكن القرآن قد وصَّى بحسن العلاقة بغير المسلمين الذين لا يضمرون في أنفسهم العدوان تجاه المسلمين.[١٥] فإن رأي الدبوسي موافق لروح القرآن تمامًا. فإن القرآن صرح بأن العدوان على الظالمين فقط والمقصود من العدو عدو فعلي لا عدو فكري: **(لا ينهاكم الله عن الذين لم يقاتلوكم في الدين ولم يخرجوكم من دياركم أن تبروهم وتقسطوا إليهم إن الله يحب المقسطين *إنما ينهاكم الله عن الذين قاتلوكم في الدين وأخرجوكم من دياركم وظاهروا على إخراجكم أن تولوهم ومن يتولهم فأولئك هم الظالمون)** (٨-٩ : الممتحنة).

هذا وهناك بعض العلماء الذين يعتقدون بلزومِ القتال مع أهل الكتاب منطلقين من الآية(قاتلوا الذين لا يؤمنون بالله ولا باليوم الآخر ولا يحرمون ما حرم الله ورسوله ولا يدينون دين الحق من الذين أوتوا الكتاب حتى يعطوا الجزية عن يد وهم صاغرون) (٢٩ : التوبة). ولكن القتال المقصود في الآية

---

14 ابن جرير الطبري جامع البيان ، ج٢، ص١٨٩؛ ابن القيم الجوزية، زاد المعاد، ج١، ص٩٧؛ ابن الهمام، شرح فتح القدير، ج٥، ص١٨٩؛ أبو العباس تقي الدين أحمد بن عبد الحليم ابن تيمية (توفي ٧٢٨هـ / ١٣٢٨م)، السياسة الشرعية، مصر، ١٩٥٥، ص١٢٣.

15 ولمزيد من المعلومات أنظر: أبو زيد عبد الله بن عمر بن عيسى الدبوسي الحنفي (توفي ٤٣٠هـ / ١٠٣٨م)، الأسرار في الأصول والفروع، مخطوط رقم٠٠١٠١٩، المكتبة السليمانية (إستانبول)، قسم ايا صوفيا، ورقة ٢٠٢و-ظ (a-b) ،.

غير متعلق بالدين. فإن الآية تتحدث عن فئة من أهل الكتاب نقضت العهد وسعوا لإلحاق الشر بالمسلمين مع أنهم كانوا يعايشون المسلمين وأما الغاية من الآية فهو إرجاعهم إلى الطاعة ليس الإكراه على الدين. إذن ثمة أمر متعلق بالأمن لا بالدين. فإن كانت هنالك مطالبة أهل الكتاب بالإسلام فقد كان الأمر إما بقتلهم أو بإسلامهم لا بإطلاقهم على دينهم مقابل دفع الجزية.

وبالإضافة إلى ذلك فإنَّ تعبير "أهل الكتاب" ليس تعبيرا عامًا شاملاً على كافة أهل الكتاب وإنما منحصرٌ على الفئة المذكورة وبالتالي فإنَّ الحكمَ خاصٌ بهم. و إنَّ تطبيق هذا الحكم الخاص على جميع أهل الكتاب في ما بعد من دون تحقيق الأسباب تصرف سياسي وليس بتصرف ديني، ومثل هذا التعامل خاطئ من زاوية القرآن.إذ أنّ القرآن يخبرنا أن من أهل الكتاب من يؤمن بالله مخلصا يريد الخير ويجتنب السيئات: (**ليسوا سواء من أهل الكتاب أمة قائمة يتلون آيات الله آناء الليل وهم يسجدون. يؤمنون بالله واليوم الآخر ويأمرون بالمعروف وينهون عن المنكر ويسارعون في الخيرات وأولئك من الصالحين**) (١١٣، ١١٤ : آل عمران).

وبمناسبة الصدد يحسن بنا أنْ نبيّنَ أن الآيات التي تنهى عن موالاة المشركين واليهود والنصارى ومنتسبي الأديان الأخرى وعن تحسين العلاقات مثلا: (**يا أيها الذين آمنوا لا تتخذوا عدوي وعدوكم أولياء تلقون إليهم بالمودة وقد كفروا بما جاءكم من الحق يخرجون الرسول وإياكم أن تؤمنوا بالله ربكم إن كنتم خرجتم جهادا في سبيلي وابتغاء مرضاتي تسرون إليهم بالمودة وأنا أعلم بما أخفيتم وما أعلنتم ومن يفعله منكم فقد ضل سواء السبيل**) (١ : الممتحنة) (**يا أيها الذين آمنوا لا تتخذوا اليهود والنصارى أولياء بعضهم أولياء بعض ومن يتولهم منكم فإنه منهم إن الله لا يهدي القوم الظالمين**) (٥١ : المائدة) (**الذين**

يتخذون الكافرين أولياء من دون المؤمنين أيبتغون عندهم العزة فإن العزة لله جميعا) (١٣٩ : النساء) إنما نزلت في الذين هم في حالة الحرب سواء كانت باردة أو ساخنة، و إلا فإن المعاملة السيئة مع منتسبي الأديان الأخرى المسالمين تساوي معاملتهم السيئة مع المسلمين.

فمعايشة المسلمين مع منتسبي الأديان الأخرى أصل من أصول الإسلام وأما القتال فهو أمر عارضي.

إن أحد الأسباب التي تسوق العلماء القائلين بوجوب القتال باسم الدين حتى يسلم الناس أجمعين، على الرغم من آيات القرآن آمرة بالعيش مع منتسبي الأديان الأخرى في السلم والمصالحة وبعدم الاعتداء عليهم ما داموا مصالحين، إلى ما ذهبوا إليه هو نظرية النسخ. فمِمَّا سُجِّلَ في المراجع في هذه المسألة أن الآية الخامسة من سورة التوبة: (**فإذا انسلخ الأشهر الحرم فاقتلوا المشركين حيث وجدتموهم وخذوهم واحصروهم واقعدوا لهم كل مرصد فإن تابوا وأقاموا الصلاة وآتوا الزكاة فخلوا سبيلهم إن الله غفور رحيم**) (٥ : التوبة) والتي يطلق المفسرون عليها بآية السيف في حكم القول الفصل في الجهاد والقتال وهي تأمر بمحاربتهم وبقتلهم حتى يسلموا ناسخة لكل آية نزلت في مصالحة غير المسلمين وهذه الآيات تبلغ عددها إلى مئة وأربع وعشرين[١٦]. فإن ذلك الرأي الذي ينافي مفاهيم القرآن[١٧] مأساة دينية تماما.فإن نسخ مئة وأربع وعشرين آية بآية واحدة يعني محاولة بعضهم تأسيس دين جديد باسم رب العالمين كما أن هذا العمل غير قابل للعفو لدى صاحب الدين أولا ولدى الناس ثانيًا.

---

16 **أبو الفضل جلال الدين عبد الرحمن بن أبي بكر السيوطي (توفي ٩١١هـ / ١٥٠٥م)، الإتقان في علوم القرآن، بيروت، ١٩٨٧، ج١، ص٥٥.**

17 **سليمان أتيش، التفسير المعاصر، استابول، ١٩٩٠، ج٤ ص٣٠.**

فأهم نقطة هي العلم بأن هذا الحكم لبعض مفسري القرآن وليس من القرآن. ومع الأسف إن رسالة الدين تتعرضُ من قبل أتباعه للفهم الخاطئ وحتى للتحريف. فإن التاريخ طافح بأمثلة ذلك. فإن أظهر مثال هو الحروب الصليبية التي أختلقت لها مبرَّرًا شرعيًا حتى أطلق عليها بالحروب المقدسة[١٨] وإن التفكير الصليبي مخالف تماما بما هو سائد في الإنجيل من رسالة عيسى عليه السلام من العفو والمرحمة والمحبة[١٩] وبتعاليم حب الإنسانية و بالتالي مخالف لِكلِّ أصول النصرانية. فكيف هذا التفكير قد فسر النصرانية بآلة فساد، وكيف أن بعض اليهود قد حرفوا رسالة موسى عليه السلام، كذلك هذا الأمر عينه قابل للإسلام والمسلمين. فلذلك مثل هذه الأفكار والأفعال السلبية ليست ناشئة من مزاج الدين الإلهي إنما من البنية التاريخية والسياسية و الاجتماعية للمجتمع المتدين به. فعلى البشرية جمعاء أن تتخذ أساسًا من سير الأنبياء للأديان الإلهية وكتبها وتطبيقاتهم وفقا لها وذلك بلفت النظر إلى التفسيرات والتأويلات التاريخية.

إن فهم ما ذكرناها من الآيات المتعلقة بمسألتنا و أمثالها رسالة لنشر الدين بالسيف منافٍ للمبادئ الأساسية للقرآن .

فمن هذه المبادئ: حرية الدين التي وضعها القرآن بحكم الآية(**لا إكراه في الدين قد تبين الرشد من الغي فمن يكفر بالطاغوت ويؤمن بالله فقد استمسك بالعروة الوثقى لا انفصام لها والله سميع عليم**) (البقرة ٢٥٦). وفي هذا الحكم نهيٌ عن محاولة إكراه الناس على تغيير دينهم باستعمال القوة والشدة. ففي كثير من الآيات أُفيد بأن الناس قد تنتسب إلى أديان مختلفة و ذلك تحت إرادة الله

[18] براشد نوت، الجهاد في الإسلام والمسيحية، ترجمة: إحسان جتاي، استانبول، ١٩٩٩، ص١١٠.

[19] انجيل متّى، ١٨:٢٢.

وعلمه، ولو أكرهَ اللهُ سبحانه وتعالى لكان الناسُ على دينٍ واحدٍ فلذلك حتى النبي لا يكره الناس في الدين: (**وإن كان كبر عليك إعراضهم فإن استطعت أن تبتغي نفقا في الأرض أو سلما في السماء فتأتيهم بآية ولو شاء الله لجمعهم على الهدى فلا تكونن من الجاهلين**) (٣٥ : الأنعام). **ولو شاء ربك لآمن من في الأرض كلهم جميعا أفأنت تكره الناس حتى يكونوا مؤمنين**) (٩٩ : يونس) (**فذكر إنما أنت مذكر، لست عليهم بمصيطر**) (٢١، ٢٢ : الغاشية).

فضلا عن أن الإيمان و الكفر تحت الإكراه غير مقبول من حيث القرآن: (**من كفر بالله من بعد إيمانه إلا من أكره وقلبه مطمئن بالإيمان ولكن من شرح بالكفر صدرا فعليهم غضب من الله ولهم عذاب عظيم**.) (١٠٦ : النحل) إنما المطلوب هو وصول الإنسان إلى الحقيقة بإرادته. فهل من الممكن للقرآن أن يقر بحرية الدين حقا أساسيا بأن يلتمس باستعمال الإكراه في الدين. فإن الحديث عن الإكراه في مكان به الحرية, والحديث عن الحرية في مكان به الإكراه، تناقض بيّن.و لكن من الخصائص الأساسية للقرآن أن يكون كتابا بعيدا عن التناقض: (**ولو كان من عند غير الله لوجدوا فيه اختلافا كثيرا**) (٨٢ : النساء).

ومن البراهين التي تدل على أن القرآن لا يميل إلى قتال باسم الدين مبدأ السلام.فإن القرآن الذي يأذن بالقتال في حين الاضطرار يدعو الناس أجمعين إلى السلام مبينًا أن الأصل هو السلام. إلا أنه قد قدمت آيات القتال على غيرها بغض النظر عن أخواتها النازلة في السلام.

فلنورد بعض الآيات المتعلقة بالسلام: (وإن جنحوا للسلم فاجنح لها وتوكل على الله إنه هو السميع العليم) (الأنفال ٦١). (لا ينهاكم الله عن الذين لم يقاتلوكم في الدين ولم يخرجوكم من دياركم أن تبروهم وتقسطوا إليهم إن الله يحب المقسطين) (٨ : الممتحنة).

كما هو الظاهر أن الله سبحانه وتعالى أمر رسوله المصطفى عليه أفضل الصلوات وأزكى التسليمات بمسالمة مع من يريد السلام وباستجارة من طلب الجوار ولو كان مشركا: (**وإن أحد من المشركين استجارك فأجره حتى يسمع كلام الله ثم أبلغه مأمنه ذلك بأنهم قوم لا يعلمون**) (٦ : التوبة). فإن الشرط في هذه الآية للسلام، جنوحهم إلى السلم لا صبوؤهم إلى الإسلام. فإن هذه الآية قد وردت في سورة التوبة و هي آخر سورة نزلت[٢٠] فبهذا الاعتبار يبدو بكل جلاء أن القرآنَ يأمر بالسلام ويختم الأمر به في هذا الصدد عكس ما يزعمون أنه يحرض على القتال باسم الدين.

والله أعلم بالصواب

[20] السيوطي، الإتقان في علوم القرآن، ج١، ص٨٩.